تَحْقِيقُ المَقَام

فِي مَسْأَلَةِ الكَلَام

(رسالة مختصرة في رد بدعة الكلام النفسي عند الأشاعرة)

*****

قيده/

أبو ريان أحمد بن عبد الله رستم المدني

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنزل معه الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، فكان كتاب الله مشتملا على المسالك الصحيحة والطرق الشرعية القويمة لبرهنة الشرائع الدينية،فمن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن وقف عند القرآن كفاه الرحمن، فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، قال سبحانه: ((الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير))، وقال سبحانه واصفاً كتابه العزيز: ((لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)).

وكان من سنة الله عز وجل في خلقه أن يَحَدُث الخلاف ويظهر الشقاق في الأمة حتى بعد نزول كتابه، قال سبحانه: ((كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات)).

وإن سبب نشوء الخلاف هو الابتعاد عن كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكلما كثر الابتعاد عن كتاب الله زادت البدع عند الطائفة، ومن هذه الطوائفِ المبتدعةِ الجهميةُ، التي كانت أخطر الفرق على العقيدة الإسلامية ومذهب أهل السنة والجماعة.

وشيخ هذه الطائفة وحامل لوائها هو الجهم بن صفوان، المكنى بأبي محرز، ظهر في القرن الثاني للهجرة، وكان صاحب خصومات وجدل من غير علم ولا بصيرة، فجاءه ناس من فرقة السامانية، وناظروه في وجود الله عز وجل، وقالوا: بما أن الله لا يرُى ولا يُسمع ولا يُحس فهو غير موجود! فرجع إلى بيته حيران وترك الصلاة أربعين يوما –

عياذاً بالله- شاكاً في ربه، ثم اخترع دليلاً لإثبات وجود ربه، وهو دليل امتناع الحوادث-وتفاصيل هذا الدليل مبثوثة معروفة في الكتب ولا يكفي المقام لبسطها- ليقنعهم بوجود الله عز وجل، وهذا الدليل هو أكبر طاغوت وأكبر محرّف لعقايد المسلمين بلا منازع، وهو باختصار: إذا كان الله يرى أو كان الله متكلماً لكان هذا دليلا على حدوث أمور في ذاته سبحانه، وما يقبل الحدوث فهو حادث، فإذا أثبتنا أن الله يتكلم متى شاء كان محلاً للحوادث، وإذا كان الله محلاً للحوادث فهو حادث، أي مخلوق.

ثم بدأ الجهم بقراءة القرآن، فوجد أن كتاب الله عز وجل مليء بإثبات الصفات لله جل شأنه، كقوله سبحانه ((الرحمن على العرش استوى))، وبناء على دليله أن الله سبحانه إذا استوى بعد أن لم يكن مستوياً فقد حدث له شيء، وما كان قابلاً للحدوث فهو حادث، فبدأ بنفي الصفات ونفى علو الله عز وجل على خلقه ونفى استواء الله، حتى قال -عياذاً بالله-: الله موجود مطلق، ووصف اللهَ بسلب النقيضين، فقال: الله ليس بعالم وليس بجاهل مثلا.

ثم جاءت طائفة بعده أخذوا دليله، ولكنهم تحيروا لما رأو صفات الله في القرآن الكريم، وصعب عليهم ردها كالجهم، فاخترعوا مسلكاً جديداً وهو نفي الصفات مع إثبات الاسم الوارد في القرآن الكريم، فيقولون: ورد في الكتاب أن الله سميع، فنقول: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، وهم المعتزلة، وصرحوا بأن بعض الصفات مخلوقة وليست بصفات لله كصفة الكلام.

ثم جاءت طائفة أقرب إلى أهل السنة من سابقيها ولكنها اتخذت دليل امتناع الحدوث أصلاً، وقسموا الصفات إلى أقسام وأثبتوا لله سبع صفات على الإجمال وتصل إلى عشرين صفة على التفصيل، وقالوا: هذه الصفات التي أثبتناها لا تدل على الحدوث، فأثبتوا لله السمع والبصر والقدرة والكلام والحياة...الخ، ولكن أشكل على دليلهم بعض الأمور، ومما أشكل عليهم صفة الكلام، فقالوا : لو أثبتنا أن الله عز وجل متكلم لزم أن يكون متكلماً كيف شاء متى شاء، والكلام لا يكون إلا

بحرف وصوت، فالله عز وجل عندما كلم موسى كلمه بحرف وصوت، وإذا أثبتنا أن الله يتكلم متى شاء أثبتنا أن ذات الله محل للحوادث، فصارت ذات الله محدثة-تعالى الله عن ذلك- فاخترعوا ما يسمى بالكلام النفسي، وقالوا: أصل الكلام هو ما يدور في القلب والخلد، وإنما الحروف والأصوات أمور يُعبّر بها عن الكلام وليست هي الكلام حقيقة، واختراعهم هذا المسلك كي ينفوا عنه سبحانه أنه يتكلم متى شاء أو أنه يتكلم بحرف وصوت، وسرت هذه البدعة في أتباعهم إلى يومنا هذا، وهي بدعة الكلام النفسي، واستدلوا على هذه البدعة بأمور.

وهذه هي قصة اختراع الكلام النفسي باختصار شديد، وقد قررت بيان بطلان هذه البدعة، وبيان أن الكلام هو ما كان بحرف وصوت وإلا لا يسمى كلاماً لا لغة ولا شرعاً، وأن حقيقة قول من يقول بالكلام النفسي هو القول بخلق القرآن، والله ولي التوفيق.

عقيدة أهل السنة في القرآن–خصوصا–وكلام الله سبحانه–عموما–

يعتقد أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تعالى تكلم بالقرآن حقيقة وأن الله يتكلم متى شاء كيف شاء، وقد كلم الله عز وجل موسى وسمع موسى كلام الله عز وجل، وقد تكلم الله عز وجل بحرف وصوت، فالله عز وجل متصف بصفة الكلام أزلاً،فلم تحدث له صفة الكلام بعد أن لم يكن قادرا عليه،ويتكلم بحرف وصوت مسموع متى شاء، وهذا معنى قول بعضهم: "كلام الله قديم النوع حادث الآحاد".

ولست بصدد شرح معتقد أهل السنة –تفصيلاً– في صفة الكلام، إذ هو مبسوط في محله، وسأقتصر على المقصد من كَتب الرسالة وهو تحرير مسألة الكلام، وبيان أن الكلام ما كان بحرف وصوت، والرد على شبه المبتدعة.

* أدلة أهل السنة والجماعة على أن الكلام ما كان بحرف والصوت

لقد خاطبنا الله عز وجل بلسان عربي مبين، قال سبحانه: ((إنا جعلناه قرآنا عربياً))، فلا بد من معرفة لسان العرب كي نفهم المراد من خطاب الله عز وجل، وبما أن المسألة هي: "معنى الكلام وهل هو الكلام نفسي أم لا" فلا بد من معرفة الكلام عند العرب.

فأقول وبالله التوفيق: لا يطلق الكلام عند العرب إلا لعلى ماكان بحرف وصوت، فإذا قال قائل: تكلمت بكذا أو تكلمت مع فلان فلا يتبادر إلى الذهن إلا الكلام بحرف وصوت، ولا يجوز أن يعني غير هذا إلا بقرينة واضحة.

قال ابن جِنِّي [المتوفى سنة 392هـ] في كتابه "الخصائص" (8/1): "فقد ثبت بما شرحناه وأوضحناه أن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برءوسها، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجُمَل، على اختلاف تركيبها. وثبت أن القول عندهم أوسع من الكلام تصرفاً، وأنه قد يقع على

الجزء الواحد، وعلى الجملة، وعلى ما هو اعتقاد ورأي، لا لفظ وجرس. وقد علمت بذلك تعسف المتكلمين في هذا الموضع، وضيق القول فيه عليهم، حتى لم يكادوا يفصلون بينهما .والعجب ذهابهم عن نص سيبويه فيه، وفصله بين الكلام والقول".

وفي كلام ابن جنى مسائل:

الأولى: الكلام إنما يطلق على الألفاظ وليس على ما يدور في النفس.

الثانية: القول أعم من الكلام، وهذا أمر مهم جداً كما سيأتي في أدلة من يقول بالكلام النفسي.

الثالثة: الكلام لا بد فيه من جرس.

الرابعة: إشارته إلى أن هذا هو تحرير سيبويه.

قلت: وكون هذا مذهب سيبويه أمر معروف متقرر أشار إليه الزبيدي في تاج العروس (370/33).

وقال ابن منظور في لسان العرب (522/12) :

"ومن أَدلّ الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماعُ الناس على أَن يقولوا القُرآن كلام الله ولا يقولوا القرآن قول الله، وذلك أَنّ هذا موضع ضيِّق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فَعُبِّر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أَصواتاً تامة مفيدة ، قال أَبوالحسن : ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر".

وأما الأدلة من الكتاب:

قول الله سبحانه وتعالى عن مريم عليها السلام: ((إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا****فأشارت إليه)).

وجه الدلالة: أن مريم عليها السلام نذرت أن لا تكلم أحداً، ولكننا وجدنا أنها أشارت، فعلى مذهب من يقول: إن الكلام هو الكلام النفسي، يرى أن مريم عليها

السلام قد تكلمت!! فقد دار في خلدها كلام نفسي وعبرت عنه بالإشارة ولا بد أن تحنث!! فإذا تبين بطلان هذا علمنا أن المراد بالكلام هو الحرف والصوت وأن ما يدور بخلدها لا يسمى كلاما، وأن إشارتها وإن أفادت معنى فإنها لا تسمى كلاماً.

فإن قيل:

قال الله سبحانه عن زكريا عليه السلام: ((قال رب اجعل لي آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا))، فاستثنى الله عز وجل الرمز من الكلام، إذن الرمز من جنس الكلام،والرمز ليس بحرف ولا صوت؟

فالجواب: أن الاستثناء هنا استثناء منقطع، فالمستثنى ليس من جنس المستثنى منه، والقرينة هو ما تقدم وما سيأتي من أدلة، وهذا الأسلوب كثير في لغة العرب.

قال سبحانه: ((فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس)) وإبليس لم يكن من جنس الملائكة.

وكذلك قوله سبحانه: ((قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا))، فليس المقصود أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسألهم من أجر إلا من شاء فإنه يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم، بل ما بعد الاسثناء لا علاقة له بما قبله، فتقدير الكلام: لا أسألكم على دعوتي أجراً وإنما من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإنفاق في أوجه الطاعات فليفعل، ولا أريد أنا من هذا الإنفاق شيئا، ومثله كثير معروف.

ومن الأدلة على كون الكلام–عموما– وكلام الله –خاصة– بحرف وصوت قوله سبحانه: ((قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)).

وكان التحدى على القرآن الذي بين أيدينا وهو الحروف، وليس التحدي على ما في نفس الله عز وجل!!

ومن أدلة السنة النبوية على ذلك:

* ما أخرجه الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به).

ووجه الدلالة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسم حديث النفس كلاماً، بل فرق بينه وبين الكلام الذي هو حرف وصوت.

* وكذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءِ ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه : إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ : (وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ) قَالُوا : نَعَمْ ،قَالَ : (ذَاكَ صَرِيحُ الإيمان).

فإن الصحابة رضي الله عنهم- وهم العرب الأقحاح- لم يسموا ما في النفس كلاماً، وهذا مما يبطل قول الباقلاني أن الصحابة سموا حديث النفس كلاماً –وسيأتي-.

*ومن الأدلة أيضا ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ((أخبروني بشجرة مَثَلُها مَثَلُ المسلم تؤتي أُكلها كل حين بإذنٍ ربها ولا تَحُتُّ ورقها، فوقع في نفسي أنها النخلة فكرهتُ أن أتكلَّم وثَمَّ أبوبكر وعمر، فلما لم يتكلَّما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (هي النخلة).

وهذا صريح من ابن عمر رضي الله عنه في أن ما وقع في نفسه لم يكن كلاماً، ولا يكون تكلم إلا إذا نطق بحرف وصوت، إذ كيف يسمى حديث النفس كلاما وهو يصرح أنه كره أن يتكلم وثم أبو بكر وعمر؟؟ فعلى مذهب المبتدعة الضالين الذين يثبتون كلام النفس أن ابن عمر تكلّم وهو كاره!! وهذا من سفاهتهم وتحريفهم للكلم عن موضعه، فإنهم لم يكتفوا بتحريف كلام الله عز وجل، بل حرفوا لغة

العرب،وكذلك حرفوا كلام الأئمة، وليس هذا عليهم ببعيد بعد تحريفهم لكلام الله عز وجل، ومن أبطل الباطل أن يقال عن كلامهم: إنه تأويل، إذ قد يتبادر إلى الذهن وجه صحة في كلامهم، بل الصواب الذي لا محيد عنه أن يقال: إنهم محرفون .وتحريفهم وتلاعبهم بكلام الأئمة منهج يرضعونه من مشايخهم، حتى جاء أحد المعاصرين فحقق كتاب ابن أبي زيد القيرواني السلفي رحمه الله، فجاء عند قوله: "وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه، خلق الإنسان....الخ".

وهذه العبارة تقصم ظهورهم وتكذب مذهبهم، فتفنن المحقق الخبيث في التلاعب بالعبارة فأثبتها هكذا: "وأنه فوق عرشه، المجيدُ بذاته، وهو في كل مكان.

بعلمه خلق الإنسان..."!!

فلعنة الله على الظالمين، ولست بصدد ذكر تحريفهم، ولكنها مجرد إشارة كي يتبين للبيب أن هدفهم هو هدم النصوص الشرعية ولو بالكذب والتحريف.

*ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما أخرجه مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن هذه الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم :(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ وَإِنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ أَنْ لا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاةِ) أخرجه ابن حبان.

فيلزم على كلام من يثبت الكلام النفسي أن جميع الناس يتكلمون في صلاتهم وصلاتهم باطلة!! فانظر-رحمك الله- إلى هذا الجهل وإلى هذا التحريف إلى أين يؤدي بصاحبه!! وأسأل الله أن لا يتقبل صلاتهم بناء على مذهبهم.

*ومن الأدلة أيضا ما أخرجه الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بلسانه ثم قال : (كف عليك هذا) فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي

النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاحَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) فالكلام هو ما كان بحرف وصوت كما هو صريح هذا الحديث.

ومن الأدلة العقلية:

أن الخرس لا يقال له متكلم، وهو-ولا شك- تدور في خلده أمور.

وكذلك ما يدور في النفس يسمى الإرادة، فما الفرق بين الإرادة وحديث النفس؟؟

وهل كل إرادة تسمى كلاما؟؟

ومن الأدلة العقلية أيضا أنه لو كان الكلام لا يتبعض ولا يتجزأ وإنما هو معنى يدور في النفس، فإن الله عز وجل لما كلم موسى عليه السلام كلمه بهذا المعنى ، فحوى موسى جميع كلام الله لأن كلام الله معنى لا يتجزأ، فصار علم موسى عليه السلام كعلم الله! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ومن الأدلة كذلك أن يقال للأشاعرة: لقد قلتم إن الكلام خبر وأمر ونهي، فكيف يكون كذلك في المعنى النفسي؟ فالكلام إذا لم تكن له صيغة كيف تفرقون بين الأمر والنهي والإرادة؟؟ وكيف تفرقون بين الخبر والعلم؟

ومن الأدلة كذلك أنه على قولهم أن من سب أو استهزأ بالقرآن الذي بين أيدينا فإنه لا يكفر، لأنه استهزأ بما هو عبارة عن كلام الله وليس كلام الله حقيقة، وهذا أمر مقرر عندهم في حقيقة الأمر، فقد وصل ببعضهم الحال إلى أن داس المصحف برجليه وقال: ما فيه إلا المداد، كما ذكر هذا ابن حزم في الفصل وبمثله قال ابن تيمية، ولا تعجب من هذا ، فهم تبع لسلفهم، فقد ذكر البخاري قصة عن أبي نعيم البلخي، وفيها أن الجهم رمى المصحف بين رجليه، فراجعها في (خلق أفعال العباد) (70)

فثبت عندنا لغة وشرعاً وعقلاً وواقعاً أن الكلام لا يطلق إلا على ما كان بحرف وصوت، وبما أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالكلام، وقد خاطبنا بلغة العرب،

فكلام الله ما كان بحرف وصوت، وقد وردت أدلة خاصة في إثبات كونه سبحانه تكلم بصوت، منها :

-قوله سبحانه لموسى عليه السلام: ((فاستمع لما يوحى))، فدل على أن كلام الله بصوت مسموع.

-من الأدلة كذلك قوله سبحانه: ((فلما أتاها نودي يا موسى))، والنداء هو الدعاء بصوت، كما قرره الجوهري في الصحاح وابن منظور في اللسان.(انظر مادة ندا)

ومن الأدلة أيضا: ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك، فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ـ لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته.

وفي هذا الحديث دلالة صريحة على أن القرآن-وهو كلام الله- حرف، وللحديث شواهد من أحاديث أخرى ومن كلام الصحابة لا يكفي المقام لاستقصائها،

ومن الأدلة التي احتج بها البخاري في (خلق أفعال العباد) ما روي عن ابن أنيس مرفوعا: يُحْشَرُ الْعِبَادُ , فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ , كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : (أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدَّيَّانُ ، لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ).

وهذا الحديث صريح في أن الصوت هو صوت الله بدلالة قوله: أنا الديان، ويكفينا احتجاج الإمام البخاري بهذا الحديث، ولا يرد على الحديث ما يتوهمه المبتدعة كقولهم "كيف يسمعه الكافر"؟؟ فالله يفعل ما يشاء، وكذلك قولهم: "فيناديهم بصوت، فلم يقل: بصوته"، فالجواب: تقرر أن المراد صوت الله بقراءة باقي الحديث: (فيقول أنا الديان...) .

وهناك أدلة كثيرة ولعل في ما ذكرت كفاية.

فصل

ليعلم القارئ الكريم أنه لم يقل أحد من أهل القبلة إن الكلام هو الكلام النفسي غير ابن كَلّاب الذي اخترع هذا القول وتبعه الأشعرية، وإلا فكافة الفرق الإسلامية تقر أن الكلام لا يطلق إلا على ما كان بحرف وصوت، ومما يؤكد هذا ما قاله الرازي في تفسيره (188/14): "أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم ، ومن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة ، وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يُعَبَّرُ عنها بهذه الحروف والأصوات...".

فخالفوا ما أطبقت عليه الأمة من أن الكلام يطلق حقيقة على ما كان بحرف وصوت، وقالوا: الكلام يطلق حقيقة على المعنى القائم بالنفس، يقول الباقلاني في الإنصاف: "ومما يدل على أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس من الكتاب والسنة والأثر وكلام العرب...".

وفي حقيقة الأمر لم يورد دليلاً صحيحاً، وستأتي أدلتهم في فصل مستقل، ولكن القصد هنا أن الأشاعرة انفردوا بهذا القول.

قال الزركشي في البحر المحيط (478/1):

"وَأَصْلُ الْكَلامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ : أَنَّ أَصْحَابَنَا لَمَّا أَثْبَتُوا الكلام النَّفْسِيَّ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ آمِرًا نَاهِيًا مُخْبِرًا. قِيلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ الْخُصُومِ الْقَائِلِينَ بِحُدُوثِهِ : إنَّ الأمر وَالنَّهْيَ بِدُونِ الْمُخَاطَبِ عَبَثٌ ، فَاضْطَرَبَ الأصْحَابُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى فِرْقَتَيْنِ : .... وَهَذَا مُفَرَّعٌ عَلَى إثْبَاتِ كَلام النَّفْسِ ، وَلَمْ يَقُلْ بِهِ إلا الأشَاعِرَةُ هَكَذَا نَقَلُوهُ عَنْ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ مِنْهُمْ ابْنُ الْقُشَيْرِيّ".

فصل

في ذكر ما استدل به الأشاعرة على قولهم (الكلام حقيقة هو الكلام النفسي)

أولا: من اللغة:

إن الكلام يطلق على ما يدور في النفس والدليل عليه قول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ****جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والأخطل عالم باللغة فنحتج بكلامه وإن كان نصرانياً، فنحن نحتج بكلام امرؤ القيس وهو كافر!!

والجواب من وجوه:

أولاً: هذا البيت غير موجود في ديوان الأخطل الذي بين أيدينا.

ثانياً: لم يذكر هذا البيت أحد من أصحاب المعاجم العربية.

ثالثاً: إن بعض الناس قد نقلوه ((إن البيان لفي الفؤاد...)).

رابعاً: إن من يحتج بهذا البيت يرد خبر الآحاد، فكيف يقبلون هذا البيت الذي لا يعرفه أصحاب اللغة، ومن نقله تخبّط في نقله!

خامساً: إن الأخطل النصراني لا يحتج بكلامه في هذا الباب لفساد عقيدة النصارى في مسألة الكلام، فمن أثرت فيه المذاهب العقدية فجعلته يغير معاني اللغة لا يحتج بكلامه في اللغة، كالمعتزلة الذين يقولون: استوى بمعنى استولى، فلا نحتج بكلامهم، لأن المذاهب العقدية غيرت معنى مصطلحاتهم، وكذلك الأشاعرة الذين يقولون: كلام الله معنى النفس، فلا يحتج بكلامهم في تعريف الكلام، لأن مذاهبهم الفاسدة غيرت معاني مصطلحاتهم.

سادساً: لو سلمنا أن هذا من شعر الأخطل وأن النصارى لم يحرّفوا معنى الكلام، فكذلك هو ليس بحجة، فالأخطل شاعر من الشعراء المولدين، وشعر المولدين ليس بحجة كما أجمع على ذلك علماء اللغة والنحو ، قال السيوطي في(الاقتراح):

((أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية))

ولم يخالف في هذه المسألة أحد من النحويين واللغويين إلا ما نقله الزمخشري في تفسيره عند قوله تعالى ((وإذا أظلم عليهم قاموا)) فذكر أن الظاهر في الفعل أظلم أن يكون متعديًا، واستدل على تعديته بقراءة "أُظلم" على ما لم يُسمَّ فاعله، وبقول أبي تمام:

هما أظلما حاليّ ثمّ تأجْليَا ... ظلاميهما عن وجهِ أمردَ أشيبا

فاحتج الزمشخري ببيت أبي تمام، وهذا لا ينقض الإجماع لأوجه:

أولا: أن الإجماع استقر قبل الزمخشري.

ثانيا: أن علماء النحو واللغة قد خالفوا الزمخشري وأنكروا احتجاجه ببيت أبي تمام.

ثالثا: رأي الزمخشري كرأي العلماء وهو أن الشعراء المولدين لا يُحتج بشعرهم وانظر إلى حجته في احتجاجه ببيت أبي تمام كما في (الكشاف) ((وهو -أي: أبو تمام- وإن كان محدثًا لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه))

فإن الزمخشري قاس شعر أبي تمام على ما يرويه، وهذا قياس مع الفارق، فإن الروايةَ قائمةٌ على الضبط ، والقولَ قائمٌ على الدراية باللغة، ولذلك رد الأئمة قوله، بل قد خطّأ اللغوييون الشعراءَ المولدين أمثال أبي تمام والمتنبي والبحتري وأضرابهم من الشعراء في أشياء كثيرة، وإذا تقرر هذا فلا يغرنك استشهاد الرضي بقول أبي تمام في شرح الكافية.

فإن قيل: قد ذكر أبو علي الفارسي بيتا لأبي تمام كما في كتابه الإيضاح، وهو متقدم على الزمخشري، فالجواب:أنه ذكره على سبيل التمثيل ولم يذكره احتجاجا به، ويجوز للمصنف في التمثيل أن يمثل بقول من شاء، حتى بقوله نفسه.

فإن قيل: قد وجدنا من يحتج بكلام أبي تمام في البيان والبديع، فالجواب: أن هذا أمر متقرر، وقد ذكرت سابقا أن علماء اللغة والنحو أجمعوا على عدم الاحتجاج بشعر

المولدين، أما أصحاب البيان والبديع فنعم، لأن باب البيان مختلف عن باب اللغة والنحو. وهذا ما قرره الأئمة والله أعلم.

سابعاً: قال الزبيدي في شرح الإحياء (2/146):

"وقد أنكره العلاء المرداوي من الحنابلة في شرح تحرير الأصول ، وقال هو موضوع على الأخطل وليس هو في نسخ ديوانه، وإنما هو لابن الصمصام ولفظه: إن البيان".

ثامنا: قال ابن الغزي الحنفي في شرح الطحاوية: "وأما من قال إنه معنى واحد واستدل بقول الأخطل المذكور فاستدلال فاسد ، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به، فكيف وهذا البيت قد قيل إنه مصنوع منسوب إلى الأخطل وليس هو في ديوانه ، وقيل إنما قال : إن البيان لفي الفؤاد ، وهذا أقرب إلى الصحة ، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت ، أي شيء من الإله بشيء من الناس، فيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب، وأيضاً فمعناه غير صحيح إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام وإن لم ينطق به ولم يسمع وهذا معنى عجيب .."

الأدلة من القرآن:

الدليل الأول: قوله سبحانه: ((ويقولون في أنفسهم)).

الجواب:

الوجه الأول: لم تنص الآية على لفظ (الكلام) فكيف نستدل بها على حقيقة الكلام؟

الثاني: تقدم معنا أن هناك فرقاً بين القول والكلام، فإذا كان القول يطلق على حديث النفس فلا يلزم أن الكلام كذلك للاختلاف بينهما.

الثالث: أن محل النزاع هل الكلام يطلق حقيقة على الكلام النفسي أم بحرف وصوت، فلو فرضنا أن الآية قالت (وتكلموا في أنفسهم) لم يكن لهم دليل، لأن هناك قرينة على أن المراد هنا الكلام في النفس، ولكن محل النزاع إذا أطلق الكلام من غير تقييد، كقوله تعالى: ((وكلم الله موسى تكليما)) فهل المراد الكلام النفسي أو الكلام الذي هو بحرف وصوت؟؟

وبهذه الأوجه يُرد على باقي استدلالاتهم.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ((وأسروا قولكم أو اجهروا به)).

وهذا كسابقه، فالآية نصت على القول، وكذلك الخلاف فيما إذا أطلق الكلام مجردا دون تقييد.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ((واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة)).

والجواب: أن الآية لم تذكر الكلام وإنما ذكرت الذكر.

الدليل الرابع: ويدل على ذلك أيضاً قول عمر رضي الله عنه : زوَّرت في نفسي كلاماً ، فأتى أبو بكر فزاد عليه ، فأثبت الكلام في النفس من غير نطق لسان.

والجواب :

أولا: هذه العبارة خطأ، وصوابها: (وكنت قد زوَّرت مقالة) ولم يقل: كلاما. كما في صحيح البخاري (6830).

ثانيا: لو فرضنا أن العبارة جاءت(زورت في نفسي كلاما) لم يكن لهم حجة، لأنه قيد هنا بقوله (في نفسي) فلو قال: تكلمت كلاما لم يفهم منه إلا الكلام بحرف وصوت.

الدليل الخامس: ما جاء في الحديث (ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)
الجواب: ليس فيه ذكر للكلام.

الدليل السادس:

وقد ذكر الأشاعرة أدلة عقلية في إثبات الكلام النفسي، وكلها أدلة ضعيفة مبنية على تصورات عقلية لا حقيقة لها، وهي أدلة ليس لها خطام ولا أزمة، وقد أعرضت عن ذكرها كي أنزه القارئ من سماع الهذيان اليوناني السفسطي الذي لا فائدة فيه، ولكني سأقتصر على شبهة عقلية واحدة، وذلك لأمور:
الأول: كثرة إيراد الأشاعرة لهذه الشبهة واعتمادهم عليها.
الثاني: أن في هذه الشبهة إلزام للأشاعرة أن ينفوا ما أُثبتوه من الصفات –وسيأتي– .
الثالث–وهو المهم– : أن هذه الشبهة قد اعتمد عليها الإمام البيهقي –غفر الله له– مع جلالة قدره وتبحره في علم الحديث والآثار، ولكن لكل جواد كبوة ولكل عالم زلة.

قال البيهقي في كتابه الأسماء والصفات –ونقله عنه الحافظ ابن حجر كذلك في الفتح عندما تكلم عن حديث أبي هريرة (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها...))– ما نصه : ((فإن كان المتكلم ذا مخارج سمع كلامه ذا

حروف وأصوات ، وإن كان غير ذي مخارج فهو بخلاف ذلك ، والباري عز وجل ليس بذي مخارج ، فلا يكون كلامه بحروف وأصوات))

فمحصل هذه الشبهة أن الحروف والأصوات تخرج من مخارج وهي الشفتان والحنجرة واللسان...الخ، وإذا ثبت هذا فيلزمنا أن نثبت هذه الأمور لله سبحانه، وبما أن الله عز وجل تنزّه عن هذه الأمور علمنا أن الله لم يتكلم بحرف وصوت.

والجواب من أوجه:

أولا: لقد تصور الأشاعرة كلام المخلوق وأنه يخرج من أدوات وحنجرة ولسان، فشبهوا الله بخلقه أولا، فقالوا: إن كان الله يتكلم بحرف وصوت فهذا يعني أن له لسانا وحنجرة...الخ، فأرادوا أن يهربوا من هذا الإلزام فنفوا كون الله متكلما بحرف وصوت!!! وهذا أمر متقرر عند الأشاعرة، وهو أنهم يشبهون الله بخلقه فتحدث لهم لوازم وإشكالات فيقومون بنفي أصل الصفة، والصواب أن الله ليس كمثله شئ، فنحن نثبت أن الله يتكلم بحرف وصوت ولكن لا نعلم الكيفية، فلا نقول: إنه – عياذا بالله- يتكلم بلسان وشفتين ويخرج الهواء من فيه ..الخ.

ثانيا:لا يلزم ممن يتكلم بحرف وصوت أن يكون الكلام خارجا من لسان وحنجرة... الخ، فقد ثبت أن هناك أمورا تتكلم من غير لسان ولا حنجرة، قال سبحانه : ((وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ)) فهل احتوت الجلود على لسان وحنجرة كي تنطق؟؟ وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر حجرا يسلم عليه، وكان يسمع تسبيح الحصى ،فهل احتوى الحجر على اللهوات وأدوات الأصوات؟؟ وكذلك حنين الجذع، وكذلك ذكر سبحانه أنه قال للسماء

والأرض(ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) فهل ثبت أن السماء قد احتوت حينها على لسان وشفتين؟؟ ومثل هذا كثير.

ثالثا: إن هذه الشبهة قد أوردها المعتزلة على الأشاعرة ، فقال المعتزلة للأشاعرة: إن كنتم تثبتون لله علما وسمعا وبصرا، فلا بد للعلم من قلب يعقل ، ولا بد للسمع من آذان وطبلات، ولا بد للبصر من عين وحدبة وقرنية، ولم يلتزم الأشاعرة بهذه اللوازم، فكذلك من أثبت الحرف والصوت لا يرد عليه ما ذكره الأشاعرة من لوازم باطلة، والله أعلم.

ومن أراد معرفة حججهم العقلية فليرجع إلى كتاب التسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه نقل كلام الرازي بفصه ونصه ثم رد عليه من ثمانية وسبعين وجهاً، علماً بأن حجج الرازي هي العمدة عندهم.

مع أن السنوسي الأشعري قد حذر من كتب الرازي لما تحويه من تخبطات وفلسفات، قال السنوسي في شرح عقيدته أم البراهين ص (70-71) من طبعة عيسى البابي الحلبي ما نصه:

"وليحذر المبتدىء جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حشيت بكلام الفلاسفة وأولع مؤلفوها بنقل هوسهم وما هو كفر صراح من عقائدهم التي ستروا نجاستها بما ينبهم على كثير من اصطلاحاتهم وعباراتهم التي أكثرها أسماء بلا مسميات، وذلك ككتب الإمام الفخر في علم الكلام وطوالع البيضاوي ومن حذا حذوهما في ذلك ، وقل أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة أو يكون له نور إيمان في قلبه أو لسانه ، وكيف يفلح من والى من حاد الله ورسوله وحرق حجاب الهيبة ونبذالشريعة وراء ظهره؟!".

بعدما تبين لنا فساد قول من يقول: إن الكلام هو الكلام النفسي، قد يقول قائل: فما قول الأشاعرة في القرآن؟؟ مع أن المعروف عنهم أنهم يقولون: القرآن غير مخلوق؟؟

فأقول وبالله التوفيق: يعتقد الأشاعرة أن القرآن مخلوق ولا شك، كأسلافهم الجهمية، وقبل نقل عباراتهم أود التنويه إلى مسألة وهي أن بعض الأشاعرة والماتيريدية قد أثبت الحروف والأصوات، ولكنهم قالوا-كي يخرجوا من إشكال امتناع الحوادث- هي حروف قديمة!! ومنهم العضد، قال الشيخ الباجوري في حاشيته على متن السنوسية ص (73) : "(ليس بحرف ولا صوت) هذا هو المشهور عند أهل السنة. وقال العضد: إنه بحروف وأصوات قديمة ... وهذا الكلام إنما سرى للعضد من الحشوية فلا يعوَّل عليه"ا.هـ

وبمثله قال الهدهدي في حاشيته (ص74).

والعضد تابع في هذه المسألة قول الشهرستاني، فإنه قرر مثل هذا الكلام في كتابه (نهاية الإقدام في علم الكلام ص 312)

والآن سأنقل ما يبرهن للقارئ أن الأشاعرة يقولون بخلق القرآن، وقبل ذلك أشير إلى أن أبا الحسن الأشعري قد صرح بأن القرآن غير مخلوق وأن من قال : القرآن مخلوق فهو كافر، وقال الأشعري في الإبانة ص (89):

"ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن مَن قال بخلق القرآن كان كافراً".

بل قال في الإبانة ص (136):

"وقد قال الله تعالى : ((وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)) والتكليم هو المشافهة بالكلام".

والله أعلم بصحة لفظ المشافهة، وقد وجدتها عند عبد الله في السنة، قال في سننه (285/1) : "عن وائل بن داود في قول الله عز وجل ((وكلم الله موسى تكليما)) قال: مشافهة مراراً".

وذكرها القاضي أبو يعلى في الطبقات الجزء الأول.

وأبدأ بنقل قول الأشاعرة الذين صرحوا بخلق القرآن.

قال إمام الحرمين في الإرشاد ص (116):

"فإن معنى قولهم ـأي المعتزلة ـ هذه العبارات كلام الله أنها خَلْقُهُ ، ونحن لا ننكر أنها خلق الله، ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلماً به".

وقال الباجوري أيضاً ص (94):

"وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق".

قال الإيجي: "فاعلم أن ما يقوله المعتزلة وهو خلق الأصوات والحروف، وكونها حادثة=فنحن نقول به، ولا نزاع بيننا وبينهم في ذلك، وما نقوله من كلام النفس:فهم ينكرون ثبوته.."(المواقف،ص/294).

وقال الباقلاني : "والنازل على الحقيقة المنتقل من قطر إلى قطر، قول جبريل عليه السلام". الإنصاف (ص/147).

وقال أبو المعين النسفي في (تبصرة الأدلة) :

" ... وهذه الألفاظ تسمى قرآناً، وكلام الله ليُؤَدّى كلام الله تعالى بها، وهي في أنفسها مخلوقة".

وفي شرح العقايد النسفية للتفتزاني أنه لا يقال: القران غير مخلوق، بل يقال: كلام الله غير مخلوق!!

وقال البوطي : ((أما جماهير المسلمين أهل السنة والجماعة ،فقالوا : إننا لا ننكر هذا الذي تقوله المعتزلة، بل نقول به، ونسميه كلاماً لفظياً، ونحن جميعاً متفقون على حدوثه، وأنه غير قائم بذاته تعالى؛ من أجل أنه حادث..))كبرى اليقينيات(ص/125).

وقال صاحب حاشية الأمير: "اللفظي: هو حادث ، والله سبحانه وتعالى لا يتكلم به بل خلقه الله في اللوح المحفوظ ، وأنزله على جبريل، ونزل به جبريل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالمعنى واللفظ جميعاً على الراجح".

قال البيجوري في شرح جوهرة التوحيد

"وهل القرآن بمعنى اللفظ المقروء أفضل ، أو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ تمسك بعضهم بما يروى : كل حرف خير من محمد وآل محمد . لكنه غير محقق الثبوت. والحق أنه صلى الله عليه وسلم أفضل ؛ لأنه أفضل من كل مخلـــوق".

وهذا-أيها القارئ الكريم- هو حقيقة قول الأشاعرة، وهو أن القرآن مخلوق، وهو قول الجهمية الذين كفرهم الأئمة، وقد نص البيجوري على أن القرآن مخلوق ولكنه قال: لا نقول هذا إلا في مقام التعليم كي لا يلتبس على الناس ويظنون أن المعنى القائم بذات الله مخلوق!!

وهذا القول من البيجوري يؤكد ما قاله الإمام ابن قدامة من أن الأشاعرة لا يستطيعون على إظهار مقالتهم.

قال ابن قدامة في المناظرة في القرآن [صفحة 35]:

"ولا نعرف في أهل البدع طائفة يكتمون مقالتهم ولا يتجاسرون على إظهارها الا الزنادقة والأشعرية".

وقال رحمه الله في ((المناظرة في القرآن [صفحة 47]:

"وعند الأشعري أنها مخلوقة، فقوله قول المعتزلة لا محالة، إلا أنه يريد التلبيس فيقول في الظاهر قولا يوافق أهل الحق ثم يفسره بقول المعتزلة فمن ذلك أنه يقول القرآن مقروء متلو محفوظ مكتوب مسموع ثم يقول القرآن في نفس الباري قائم به ليس هو سوراً ولا آيات ولا حروفاً ولا كلمات فكيف يتصور إذا قراءته وسماعه وكتابته ويقولون إن موسى سمع كلام الله من الله ثم يقولون ليس بصوت ويقولون إن القرآن مكتوب في المصاحف ثم يقولون ليس فيها إلا الحبر والورق".

وهكذا يتبين لك أيها القارئ الكريم أن قول الأشاعرة (الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وكلام الله نفسي) مفضي إلى القول بخلق القرآن، وقد أجمع السلف الصالح

على كفر من يقول بخلق القرآن، وعباراتهم في هذا الأمر مشهورة مقررة معروفة ولا حاجة لنقلها.

فصل

قال الشيخ الإمام العلامة الحافظ المحقق البارع الأصولي المطلع أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية– عليه رحمة رب البرية– في مجموع فُتياه (527/6): "وإنكار تكلم الله بالصوت وجعل كلامه معنى واحداً قائماً بالنفس بدعة باطلة لم يذهب إليها أحد من السلف والأئمة" ا.هـ

فالسلف الصالح والأئمة قد أثبتوا أن القرآن كلام الله، تكلم الله به حقيقة، ونبذوا قول الكلابية والأشعرية، وإليك جملة منها:

1–الإمام أحمد بن حنبل.

قال عبد الله بن أحمد : "سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت،فقال أبي : (بلى، إن ربك عز وجل تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت)" (السنة 533).

2–الإمام أبو عبد الله البخاري

قال رحمه الله في كتابه (خلق أفعال العباد) (ص 149) بعد أن سرد الأدلة على أن الله يتكلم بصوت: "وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق، لأن صوت الله جل ذكره يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب...".

وله كلام طويل مهم فراجعه.

3–أبو حامد الإسفراييني

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (12/ 306):

"وقد ذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي في كتابه الذي سماه (الفصول في الأصول) قال سمعت الامام أبا منصور محمد بن أحمد يقول:

سمعت أبا حامد الإسفرائيني يقول:

مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار : أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال : مخلوق فهو كافر. والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله...".

وقال : " ولم يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن ينسبوا إلى الاشعري ، ويتبرؤون مما بنى الأشعري مذهبه عليه ، وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه ، على ما سمعت عدة من المشايخ والأئمة منهم الحافظ المؤتمن بن أحمد بن علي الساجي ، يقولون : سمعنا جماعة من المشايخ الثقات قالوا:

كان الشيخ أبو حامد أحمد بن طاهر الإسفراييني إمام الأئمة ، الذي طبق الأرض علما وأصحابا إذا سعى إلى الجمعة من (قطعية الكرج) إلى (جامع المنصور) يدخل الرباط المعروف بالزوزى ، المحاذي للجامع ، ويقبل على من حضر ، ويقول: اشهدوا علي بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل ، لا كما يقوله الباقلاني.

وتكرر منه ذلك جمعات ، فقيل له في ذلك ، فقال:

حتى ينتشر في الناس وفي أهل الصلاح ، ويشيع الخبر في أهل البلاد :

أني بريء مما هم عليه – يعني الأشعرية – وبريء من مذهب أبي بكر (بن) الباقلاني ؛ فإن جماعة من المتفقهة الغرباء يدخلون على الباقلاني خفية ويقرؤون عليه فيفتنون بمذهبه، فإذا رجعوا إلى بلادهم أظهروا بدعتهم لا محالة، فيظن ظان أنهم مني تعلموه قبله، وأنا ما قلته، وأنا بريء من مذهب الباقلاني وعقيدته".

وقال: " ... وذكر قصة قال في آخرها : إن الشيخ أبا حامد قال لي : يا بني قد بلغني أنك تدخل على هذا الرجل ، يعني الباقلاني فإياك وإياه ، فإنه مبتدع يدعو

الناس إلى الضلالة ، وإلا فلا تحضر مجلسي ، فقلت : أنا عائذ بالله مما قيل ، وتائب إليه ، واشهدوا علي أني لا أدخل إليه".

انتهى من نقل شيخ الإسلام ابن تيمية (درء تعارض العقل والنقل 2/95-97) تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.

4-أبو بكر بن خزيمة.

كان رحمه الله شديداً على الكّلابية وهم أول من قال بالكلام النفسي، فألف في الرد عليهم وكان دائم التحذير منهم كما هو معروف مشهور عنه رحمه الله، وممن نقل شدته على الكلابية أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه(مناقب أحمد) كما نص عليه ابن تيمية في مجموع الفتاوى(6/178).

5-أبو جعفر أحمد بن سنان الواسطي المحدث الثقة.

قال أبو جعفر أحمد بن سنان: "من زعم أن القرآن شيئين أو أن القرآن حكاية فهو والله الذي لا إله إلا هو زنديق كافر بالله، هذا القرآن هو القرآن الذي أنزله الله على لسان جبريل على محمد لا يغير ولا يبدل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد كما قال الله عز وجل (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الإسراء 88 ، ولو أن رجلاً حلف أن لا يتكلم اليوم ثم قرأ القرآن أو صلى وقرأ القرآن أو سلم في الصلاة لم يحنث، لا يقاس بكلام الله شيء، القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود ليس من الله تعالى شيء مخلوق ولا صفاته ولا أسماؤه ولا علمه" أخرجه الضياء في الاختصاص(ص16) وإسناده صحيح.

6–الإمام أبو الحسين العمراني فقيه الشافعية في بلاد الحرمين.

له كتاب أثبت فيه أن الله تكلم بالقرآن وأن جبريل سمعه منه، كما نص ابن القيم في كتابه(اجتماع الجيوش الإسلامية) ص(71).

7–الإمام الحافظ أبو نصر السجزي.

له كتاب معروف مشهور في الرد على من يقول بالكلام النفسي.

8–الإمام قوام السنة إسماعيل الأصبهاني.

قرر في كتابه الحجة أن القرآن كلام الله تكلم به حقيقة، وأنكر على من يقول: إن القرآن عبارة عن كلام الله.

9- الإمام عبد الوهاب الحنبلي

قال عبدالوهاب بن عبدالواحد الشيرازي الحنبلي في كتابه (الرسالة الواضحة) : " فإذا قال لك القائل منهم : القرآن كلام الله ، و لكن الحرف و الصوت مخلوق ، قيل له : أنت في حل من الحرف فما تقول في الكلمات ؟ ، فمن قوله : مخلوقةٌ. فقل له : نهب لك الكلمات ، فما تقول في الآيات التي تكلم الله بها ؟ ، فمن قوله : إن الله ما تكلم بذلك ، والجميع عنده مخلوق .فيعلم العاقل أن ذكر الحرف حيلة و خديعة ، و إلا فلا فرقَ عندهم بين الجملة و التفصيل في أن الله تعالى ما تكلم بالجملة ، وأن الجميع مخلوق "

فصل

إن من أعظم أسباب الضلال والحيرة والشك هو إعطاء العقل قدراً أكبر من قدره، وجعله حَكَما يُرجع إليه عند الاختلاف، بل جعله هو المقرر الأول للقضايا وما سواه تبع له، وذلك لأن العقول تختلف من شخص لآخر، فهذا عقله يجوّز الإلحاد وهذا عقله لا يمانع من وجود إلهين، فإلى أي عقل نحتكم؟؟

إن أساس بلاء المتكلمين هو عدم فهمهم لحقيقة العقل، وعدم إدراكهم أن العقل آلة لفهم النصوص الشرعية، فالعقل للتدبر والتفكر ، وليس لإثبات الأمور ونفيها من أساسها، ولو كان للعقل أن يثبت الأحكام لاستغنى الشارع عن إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكن الله عز وجل قد أرسل الرسل لبيان الدين والشريعة والمنهج، وأمرنا بقبول ما جاؤا به والانقياد له، ولو لم يدرك العقل حقيقة مراد الشارع، فإن عليه التسليم، بل الإيمان بالغيب مما مدح الله به المؤمنين، وهذا الباب قد فارق المبتدعة فيه أهل السنة والجماعة، فجعلوا دلالات العقل هي الدلالات القطعية التي لا تقبل الشك، وما سوى العقل فهو ظني وإن ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم بطريق قطعي، فإن من أصول المبتدعة عرضَ الحكم الشرعي على عقولهم، فإن وافق العقل قبلوه وإلا تفننوا في رده–أصالة– أو رد دلالاته.

والحق الذي لا ريب فيه أمور:

أولاً: إن الشرع الذي ورد من طريق السمع قد يكون معقولاً للعقل وقد لا يكون.

ثانياً: إن من أصول أهل السنة والجماعة التسليم للنص الشرعي وإن خالف العقل في الظاهر، وذلك لأن النقل الصحيح موافق للعقل الصريح، ولكن قد تقصر بعض العقول عن إدراك المعنى، فليس لها أن ترد النص الصحيح، بل لا بد من الانقياد والتسليم، قال سبحانه: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)).

فلا بد على المؤمن أن يسلم للرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء به، وهذا أصل عظيم، كما في قوله سبحانه: ((إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)).

فهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الانقياد والانصياع لما جاء عن الشارع، فلم يقل الله جل ذكره (أن يعرضوه على عقولهم)! بل امتدحهم بتسليمهم لما جاء عن الشارع الكريم.

ثالثاً: إن هذا المنهج وهو التسليم والانقياد لما جاء به الشارع قد حفظ منهج أهل السنة والجماعة من التخبط والتناقض، وكذا قد حفظ منهج أهل السنة والجماعة من بدع المتكلمين وفساد الأصول التي عندهم في محاكمة النصوص الشرعية.

رابعاً: إن هذا المنهج هو الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم وهو التسليم للنص الشرعي، وهذا المنهج لم يكن إلا أمراً تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً قد احمرّ وجهه يرميهم بالتراب ويقول مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا بل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يبين في هذا الحديث العظيم أن من أشكل عليه شئ من الشريعة فلا يجوز له إلا أن يرده لعالمه مع قبوله والتسليم به .

خامساً: إن هذا المنهج الرباني جعل الإمام مالكاً يؤسس قاعدة كانت كالشوكة في حلق أهل البدع إلى عصرنا هذا، حيث قال للسائل عندما سأله عن الاستواء: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة).

سادساً: إن هذا المنهج هو منهج السلف الصالح ومن تبعهم، وأما أهل البدع على كافة فرقهم فإنهم يعتقدون أن العقل هو الذي يثبت وينفي ويؤسس ويؤصل، ولذلك من أوائل ما يدرس عندهم في كتبهم الكلامية ما يجب على العقل وما يمكن وما يستحيل، وما يتبع هذه المسألة من أغلوطات.

سابعاً: قال الإمام أبو المظفر السمعاني: "فقد جعلوا . يعني المتكلمين . عقولهم دعاة إلى الله ووضعوها موضع الرسل فيما بينهم، ولو قال قائل: لا إله إلا الله، عقلي رسول الله، لم يكن مستنكرا عند المتكلمين من جهة المعنى**!!**".

ثامناً: قال الشيخ عبد الله الفيفي في إحدى مقالاته: "ومن سَفَه المتكلّمين أنّهم يظنّون بأنّ أهل الحديث عاجزون عن الخوض في العقليّات، وأنّهم لم يختاروا طريق الإقرار والإمرار إلا لقصور الفِكر، وضعْف النّظر، وضيق الأُفُق، والحقّ أنّ عُلماء أهل الحديث من أحدّ النّاس ذكاء، وأشدّهم نباهة، وما أعرضوا عن العقليّات "في أمور الشّرع" إلا لما اقتضته عقولُهم الرشيدة، وفِطرُهم السويّة، ولو جالوا مع أهل الكلام في العقليّات لأوردوهم لُجج البِحار، وهذا كتاب شيخ الإسلام (درء تعارض العقل والنقل) قد أبان فيه عن معرفةٍ بمخارج أهل الكلام ومداخلهم، حتّى أقرّ المنصف بأنّه قد سبَر دلائل قواعدهم ومُقتضيات أصولهم وخبرها أكثر منهم".

تاسعا: بناءً على ما تقدم فإنه لا توجد مسألة عند المتكلمين إلا وقد تخبّطوا واختلفوا فيها، وعلى سبيل المثال تخبط الأشعرية الذين قالوا بالكلام النفسي، فإنهم بعد إثباتهم أن كلام الله تعالى نفسي انقسموا إلى فرق في التعامل مع النصوص التي أثبتت أن كلام الله مسموع، فمنهم من قال: الكلام النفسي مسموع**!!** ومنهم من قال: الأصل أنه غير مسموع ولكن بالقدرة يصير مسموعا**!!** وبعضهم رد ما يدل على أن كلام الله مسموع**!!** إلى غير هذا من مذاهب،

قال ابن كمال باشا في رسالة الخلاف :

(المسألة الثانية:

قال الماتريدي: كلام الله تعالى ليس بمسموع وإنما المسموع الدّالُّ عليه.

وقال الأشعري: مسموعٌ كما هو المشهور من حكاية موسى.

قال ابن فورك :المسموع عند قراءة القارئ شيئان :صوت القارئ وكلام الله تعالى .

وقال القاضي الباقلاني :كلام الله غير مسموع على العادة الجارية، ولكن يجوز أن يُسْمِع الله تعالى مَنْ شاء مِنْ خلقه على خلاف قياس العادة من غير واسطة الحروف والصوت .

وقال أبو إسحاق الإسفراييني ومَنْ تبعه: إنَّ كلام الله تعالى غير مسموع أصلاً، وهو اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي، كذا في البداية)

وهكذا يبقى الأشاعرة حيارى لا يدرون ما الصواب، وتجد أتباعهم المقلدين كالمساكين، ليس عندهم إلا نقل تخبطات أشياخهم، ولا وسيلة للترجيح لأن قولهم مبني على عقول مجرّدة وليس للنص قيمة عندهم، فقد ذكر الصاوي الأشعري أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة كما في حاشيته على الجلالين!!

فلا تستطيع أن تقول لمن ينفي سماع كلام الله مطلقا بأن هذا ورد في النص! فمن أسهل الأجوبة أن يقول: النص متشابه أو دلالته ظنية أو أو أو... وإني أتحدى في هذا المقام أن يرجح أشعري أحد الأقوال التي ذكرها ابن كمال باشا، وليس له إلا أن يقول: دلني عقلي –من غير مستند لا شرعي ولا واقعي– إلى أن قول فلان هو الراجح. والله المستعان.

ومن تدبر كلام منظري المذهب علم يقينا أنه لا قيمة للنصوص الشرعية عندهم، فهاهو الرازي يضع شروطا لقبول النص الشرعي، وهي شروط تعجيزية مفادها عدم الاستدلال بالنصوص الشرعية البتة، فقال في المحصل: الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن عشرة أمور: عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ وصحة إعرابها وتصريفها وعدم الاشتراك والمجاز والتخصيص بالأشخاص والأزمنة وعدم الإضمار والتقدين والتأخير وعدم المعارض العقلي الذي لو كان لرجح.أ.هـ

فانظر إلى هذه الجرأة –رحمك الله– فالشرط الأول والشرط الأخير كافيان لإبطال دلالة النصوص الشرعية، فهل الذي نقل لنا الشريعة رواة معصومون؟؟ وكذلك الشرط الأخير: وهو عدم مخالفته للعقل، إذ لو كان لرجح العقل، فلا حاجة للنص الشرعي البتة، لأننا لو أثبتنا أن هذا هو كلام الشارع لا يكفي

لأن نحنتج به بل لا بد من عرضه على العقل عياذا بالله، وهذا ما قرره الرازي في جملة من كتبه كأساس التقديس، وقد فند شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الترهات وهذه السخافات في كتابه بيان تلبيس الجهمية.

وليس هذا اعتقاد الرازي فحسب، فانظر إلى الجويني على سبيل المثال إذ يقول في الإرشاد : وهذه الأحاديث التي يتمسكون بها فآحاد لا تفضي إلى العلم، ولو أضربنا عن جميعها لكان سائغا. أ.هـ

أي: أن الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة والجماعة في إثبات صفات الله أحاديث آحاد تفيد الظن ولا تفيد القطع، فلو رددناها جملة لكان سائغا!! لأنها أخبار آحاد ولا تفيد إلا الظن!! فانظر إلى جرأة الجويني في رد الأحاديث النبوية، والجويني من أجهل الناس في الحديث النبوي، كما قرر ذلك ابن تيمية والذهبي، بل حتى الكوثري في (إحقاق الحق) أثبت أن الجويني جاهل في الحديث النبوي واستدل الكوثري بتحرير ابن تيمية.

ولا يظن القارئ الكريم أن الجويني في هذه العبارة يرد خبر الآحاد وحده ويقبل المتواتر، فأحاديث الصفات من قبيل المتواتر وكثير من الصفات موجودة في كتاب الله وكتاب الله متواتر ومع هذا لم يقبل الجويني، بل إنه صرح بأن المتواتر أيضا لا يفيد العلم بالمخبر عنه لعينه كما في الإرشاد.

فيفهم من كلامهم أن صفات الله لا تُثبت إلا من طريق العقل، وأما النص فلا عبرة به، وقد صرح بهذا السنوسي فقال في شرح الكبرى:

(الأول: ما لا يصح الاستدلال عليه إلا بالدليل العقلي القطعي) وذكر من أمثلة هذا النوع صفات الله.

ولذلك لا تجد في كتب عقائد الأشاعرة استدلالا بحديث أو آية، وإذا ذكروا حديثا أو آية فذكرهم لها لإبطال دلالتها، وكل قارئ بإمكانه أن يذهب ويشترب كتب الأشاعرة كالمحصل للرازي أو شرح الكبرى للسنوسي أو حاشية الأمير ويقرأ، فإن وجد مسألة قد استدلوا لها بالكتاب والسنة فليتحفني بها.

فالأشاعرة كما تقرر يرون أن الحجج العقلية قطعية، ولا أدري لماذا لم تكن حجج المعتزلة العقلية مقبولة عند الأشاعرة أو حجج القدرية العقلية التي يرونها قواطع لم تكن مقبولة عند الأشاعرة، وحجج الروافض

لعنهم الله على إثبات الأئمة وقولهم: إنها حجج عقلية تفضي إلى وجوب وجود المعصوم، لماذا لم تكن مقبولة عند الأشاعرة؟؟

وبناء على هذا وعلى كلام الجويني السابق وهو الإضراب عن الأحاديث وعدم الأخذ بها سائغ فأقول:

نحن-معاشر أهل السنة- لو أضربنا عن خرافات الأشاعرة وأدلتهم العقلية القطعية-زعموا- لكان سائغا، بل هو الصواب الذي لا محيد عنه.

واعلم أن إمامهم في هذا الموضوع-وهو رد النصوص الشرعية بقواطعهم العقلية- إبليس لعنه الله، فإن الله عندما أمره بالسجود عارض هذا النص الشرعي بالعقل، فقال (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) ولكن الله عز وجل كفره وطرده من رحمته، وبهذا نعلم أن النص الشرعي لا بد أن يُقبل وإن خالف العقل لقصور العقل عن إدراك المعنى.

فإبليس ظن أن النار خير من الطين وهذا باطل لأمور كثيرة -بسط بعضها الشيخ محمد الأمين كما في ملحق المذكرة- ومن أحسنها: فساد الاعتبار.

وكذلك لا بد أن يُعلم أن هذه مسائل غيبية، فلا سبيل لمعرفتها إلا بمشاهدتها أو مشاهدة مثيلها أو بخبر صادق، وقد تعذر المسلكان الأولان في صفات الله فبقي مسلك خبر الصادق، فصدقنا النبي صلى الله عليه وسلم. ومن تناقض الأشعرية في هذا الباب أن المعتزلة عندما نفوا الميزان وعذاب القبر في الجملة قال لهم الأشاعرة: إن هذه المسائل تعد من الغيبيات فلا نُدخل العقل فيها ولا بد من تصديق الوحي الذي أخبر بالميزان وعذاب القبر!! فنقول لهم: فإذا كان عذاب القبر من الغيبيات التي لا تعلم إلا بطريق النقل فكيف صارت صفات الله من الغيبيات التي لا تعلم إلا بطريق العقل؟

وهذه إشارة إلى منزلة النصوص الشرعية عند الأشاعرة وكيف يعظمون العقل ويقدمونه على النقل، وقد بينت حدود العقل في التفكير وأن لا يمكن الاعتماد على العقل وحده ومنزلة النصوص الشرعية وأنها الأساس في تثبيت التشريع والرد المفصل على من أنكر خبر الآحاد من المعتزلة والأشعرية وبيان تخبطهم في هذا الباب وكذلك الرد على القواطع العقلية وبيان تهافتها والرد على مسألة مخالفة النقل للعقل أمر واقعي التي زعمها كثيرة من الملحدين والعلمانيين في رسالة مستقلة.

تنبيه مهم: قد نقلت عن الرازي أنه اشترط عصمة الرواة كي نستدل بالدليل اللفظي، وقد يقول قائل: إن الرازي لا يقصد بعصمة الرواة ما فهمته أنت بل يقصد أمورا أخرى، أقول: بلى، فالرازي رد روايات الصحابة في الاعتقاد لأنهم غير معصومين وتكلم في أساس التقديس عن هذا الأمر، فقال كلاما طويلا ما معناه((كيف نقبل مرويات الصحابة كقبول قطعي ونحن نعلم أن عائشة طعن في ابن عمر وطعن أبو سعيد في عثمان....الخ وبدأ ينقل مثل هذا الكلام مؤكدا أن خبر الصحابي الواحد لا يكفي للاحتجاج.والله أعلم.

فصل

صفة الكلام عند الأشاعرة:

تقدم معنا أن الأشاعرة وقعوا في تناقضات كثيرة بسبب اعتمادهم على العقل دون النقل، وقد ذكرت هذا الفصل لأمور:

1- بيان شئ من تناقضهم.
2- بما أن الرسالة تتعلق بصفة الكلام فإني أحببت أن يطلع القارئ الكريم على بعض معتقدات الأشاعرة في صفة الكلام.
3- إثبات قولهم بالكلام النفسي.

وإليك البيان:

صفة الكلام:

يثبت الأشاعرة صفة الكلام لله جل وعلا، وعندهم أن الكلام أزلي قائم بالنفس، وأدلة الأشاعرة على إثبات صفة الكلام أدلة عقلية محضة، أما إثبات صفة الكلام بالنقل فهو فرع إثباتها بالعقل، وإلا الأصل في إثباتها هو العقل، لأن صفة الكلام لو عارضت عقولهم لما أثبتوها، كما أنهم لم يثبتوا صفات كثيرة وردت في النقل، وقد صرّح الآمدي بهذا(أي أن أدلة إثبات صفة الكلام أدلة عقلية وأما النصوص فهي فرع إثباتها بالعقل) كما في غاية المرام للآمدي.

الكلام النفسي:

أما معنى الكلام النفسي فهو الفكر الذي يدور في الخلد، فأنت إذا أردت أن تقول لشخص (ناولني الكتاب) فإنك تجد المعنى في نفسك قبل أن تتكلم ، وهذا الذي تجده في نفسك هو الكلام النفسي.(انظر الإرشاد للجويني)

وحديث النفس هو العلم بمعاني معينة، فهو في حقيقة الأمر علم وإرادة لا غير. وقد صرّح الشيرازي في الإشارة بأن سماعنا لكلام الله هو كعلمنا به أ.هـ

وقد تقدم بطلان الكلام النفسي.

الكلام أزلي:

وكذلك يعتقدون أن كلام الله أزلي،فجميع كلام الله عندهم أزلي، أي تكلم به في الأزل، فلم يحدث لله سبحانه كلام بعد أن لم يكن، فالله لم يزل متكلما بجميع كلامه، ولا يوصف بالسكوت، وقد شنع الباجوري في أم البراهين على من أثبت السكوت لله، وقالوا: السكوت نقص والكلام كمال فوجب اتصاف الله بالكلام.

ومعنى قولهم: أن الله متكلم في الأزل بجميع كلامه أي أن الله أمر المؤمنين بالصلاة قبل أن يخلقهم، وذكر قصص الأنبياء للمؤمنين قبل أن يخلق الأنبياء وقبل أن يخلف المؤمنين، وخاطب أهل الجنة قبل خلقهم!! لأن الله لو كلم أهل الجنة بعد أن لم يكن كلمهم من قبل فقد حدث لله شئ، وما كان يقبل الحوادث فهو حادث!!

فلذلك عندهم أن الله متكلم بجميع كلامه في الأزل، وأن السكون نقص والكلام كمال فوجب تصافه بالكمال.

وقد ذكر الرازي في المطالب العالية اعتراضا على هذا الوجه فقال((وأما الوجه الثالث –من أدلة الأشاعرة في إثبات الكلام–وهو أن الكلام صفة كمال والخلو منه نقص والنقص على الله محال فجوابه: أن الاشتغال بالأمر والنهي حال عدم المأمور والمنهي هو النقص والسفه))

وقال في نفس الموضع(لا نسلم أن السكوت نقص بل النقص أن يقول القائل: يا زيد صل ويا عمرو صم مع أن زيدا وعمرا يكونان غير موجودين)

ولم يرد الرازي على هذا الإشكال، ولذلك كثر اضطراب الأشاعرة، وسيأتي البيان.

أما هذا النص من الرازي فإنه يؤكد للقارئ الكريم أن الأشاعرة عندما أثبتوا أن كلام الله أزلي قائم بنفسه لا يتبعض ولا يتجزأ قالوا: إن الله أمر المؤمنين قبلن خلقهم....الخ

وأما أهل السنة والجماعة عندما اتبعوا الكتاب والسنة وافقوا العقل فقالوا: إن الله عز وجل متصف بصفة الكلام، أي إنه قادر على الكلام من الأزل، فلم تحدث له الصفة بعد أن كان غير قادر، ولكنه يتكلم متى شاء كيف شاء..

فصل

وبعد أن أثبت الأشاعرة الكلام النفسي واتفاقهم أن كلام الله لا يتجزأ ولا يتعدد تحيروا في مسألة، وهي أن الكلام أمر ونهي وطلب ونداء، فهل نثبت لله هذه الأمور؟

وإذا أثبتناها فقد أثبتنا التعدد وهو باطل؟؟!!

فذهب ابن كلاب إلى أن الكلام النفسي له خمس صفات: أمر ونهي وخبر واستخبار ونداء، وقد نسب هذا القول لابن كلاب كل من تكلم عنه كابن التلمساني في تعليقاته والجويني والسنوسي والرازي وغيرهم كثير.

وهذا الكلام الذي قاله ابن كلاب يخالف قواعد الأشعرية لأنه يثبت التعدد، كما قال السنوسي في شرح الكبرى ((وذهب ابن كلاب إلى التعدد))

أما باقي الأشعرية فإنهم رأوا أن هذا مخالف لقواعدهم فاضطربوا اضطرابا شديدا، فجعله السنوسي شيئين–طلب وخبر كما في شرح الكبرى، والإلزام حاصل له.

أما أبو إسحاق الإسفراييني فإنه اتبع قواعد المذهب فجعل الكلام النفسي خبر فقط، وهو رأي الرازي كما في معالمه.

وقول أبي إسحاق والرازي وإن كان هو الموافق لأصول المذهب إلا أنه باطل قطعا، فالخبر يقبل التصديق والتكذيب وأما الطلب فليس كذلك، وقد ألزمهم بهذا التلمساني في تعليقاته على معا لم الرازي.

ولكن بقي لكلام الرازي حظ من النظر حتى بعد انتقاد السنوسي وغيره له!!

فقد شرح معنى قول الأشعرية (الكلام النفسي معنى واحد) الآمديُ في أبكار الأفكار.

فقرر هنالك أن كلام الله قضية واحدة ولكن سبب اختلاف العبارات عنه اختلاف التعلقات،وهذا النوع من الاختلاف ليس راجعا إلى أخص صفة الكلام بل إلى أمر خارج عنه أ.هـ

فعندهم أن الأمر بالصلاة هو الأمر بالزكاة والصيام وخبر فرعون هو خبر إبراهيم عليه السلام ولكن اختلاف العبارات بسبب اختلاف المتعلقات وهي أمر خارجي عن صفة الكلام، فلو لم تختلف المتعلقات لكان كلام الله واحد ولو لم توجد المتعلقات لكان الكلام معدوما! وهذا الإشكال قد طرحه الآمدي في أبكار الأفكار وأجاب عنه بقوله: هذا لا يلزم، ولم يفصل، قلت : بل هو لازم!

وكل هذه التخبطات كي لا يثبتوا لله التعدد، لأن التعدد من صفات الأعراض والأعراض محدثة أي مخلوقة!

فلذلك أعادوا الأمر والنهي والخبر إلى معنى واحد، ويلزمهم على هذا أن يعيدوا صفة السمع والبصر ...الخ إلى معنى واحد، فهذه الصفات متعددة فأثبتنا أن الله يتصف بالتعدد!!

وقد تفطن لهذا الاعتراض الآمدي فقال في الأبكار: ((فإن قيل: إذا قلتم بأن الكلام قضية واحدة وأن اختلاف العبارات بسبب المتعلقات الخارجة، فلم لا جوزتم أن تكون الإرادة والعلم والقدرة وباقي الصفات راجعة إلى معنى واحد.....وإن جاز ذلك فلم لا يعود ذلك كله إلى نفس الذات من غير احتياج إلى صفات؟ ثم ذكر جواب الأشاعرة على هذه الشبهة **ثم قال عن جوابهم (وفيه نظر) ثم قال عن هذا الإلزام بأنه ممشكل، <u>وعسى أن يكون حله عند غيري</u>))**

فهذا هو أحد أساطين المذهب الأشعري يعترف بعجزه عن جواب هذه الشبهة ويقول ((عسى أن يكون عند غيري حله)

ولا تلتفت أخي القارئ الكريم إلى بعض الدجالين في هذا العصر الذين يقولون: هذه إلزامات التيمية وهي إلزامات ضعيفة ويحرّفون الكلم عن مواضعه! ويقولون: نحن نقصد بقولنا(الكلام قضية واحدة كذا وكذا) فإنهم لا يتجاسرون على إظهار حقيقة مقالتهم، فالآمدي والرازي عمدة من أتى بعدهما، وكانا يصرحان بمذهبهم الفاسد ويطرحون الإشكالات بجرأة، ولذلك ترى الآمدي حيران، وهذه الحيرة معروفة عند الأشاعرة مبسوطة في محلها، مع العلم بأن هذا ليس إشكالا بل هو حقيقة قولهم، بل هم يصرحون بأن الكلام النفسي هو ما يدور في الخلد وما تجده في نفسك إذا أردت أن تطلب من زيد شيئا،فهو الإرادة في الطلب والعلم في الخبر!وهذا على تقسيم السنوسي، فهم حقيقة لم يثبتوا صفة الكلام وإنما أرجعوها للعلم والإرادة، ولو بحثنا مسألة السمع والبصر والإرادة لرجعت إلى العلم عند التحقيق، وكل هذا يؤكد ما نقلته عن ابن قدامة من أن الأشعرية لا يتجاسرون على إظهار مقالتهم، ولعل بسط الكلام في صفتي السمع والبصر يكون في موضع آخر.

ولكن كي يتضح الإشكال الذي طرحه الآمدي -وهو إرجاع الصفات إلى العلم- أقول: إن السمع عند الأشاعرة هو العلم بالمسموع، وقد علم الله المسموع في الأزل، إذ لا يجوز في حق الله أن يسمع قول الشخص –الآن- حين يتكلم، لأن هذا مفض إلى القول بحلول الحوادث في ذات الله! فإذا سمع الله كلام شخص الآن فإنه لم يسمعه قبل هذا، وهذا يدل على الحدوث في ذات الله، فقالوا: السمع هو العلم بالمسموعات، فيرجع السمع إلى العلم، وكذلك البصر، فرجعت هاتان الصفتان إلى العلم،

ورد هذا الهذيان وأن كلام الله لا يوصف بالتعدد مقرر في كتب أهل السنة وبالأدلة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت لله كلمات، فهي متعددة، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات)) والقرآن الكريم متعدد ففيه سور وآيات وخبر وأمر ونهي، وقال جل في علاه((قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي..))وكلمات الله لا نهاية لها، وقد اعترف ابن التلمساني بهذا فقال في تعليقاته ((إن الكلام الذي تدعي الأشاعرة قدمه واحد،والكلمات المستعاذ بها موصوفة بالكثرة وعدم النهاية!)

ومن ناتج هذا القول-أي الكلام النفسي وعدم التعدد وأن العبارات دليل على مافي النفس- قالوا: إن التوراة والإنجيل والقران شئ واحد، ولكن إن عبرنا عن الكلام النفسي بالعبرانية صار توراة، وإن عبرنا عنه بالعربية صار قرآنا! وهذا مبثوث عندهم في كتبهم وانظر على سبيل المثال أصول الدين للبغدادي.

وهناك إشكالات كثيرة على قولهم هذا حاولوا ردها بأمور مستنكرة واضطربوا اضطرابات شديدة ولكن الوقت لا يكفي لنقلها كلها.

وبما تقدم يتبين للقارئ صدق ما قلناه من الاضطراب الذي وقع فيه مَن ترك الكتاب والسنة واعتمد على الأدلة العقلية المحضة التي لا تسلم من اعتراض، فالسنوسي ذكر قاعدة وهي أن البكم رذيلة، فيلزم أمران:

الأول: إثبات الكلام، لأنه ضد البكم.

الثاني: نفي الحروف والأصوات، لأننا إذا أثبتنا أن الله تكلم بحروف وأصوات لزم منه البكم، لأن بين الحرف والحرف بكم! فنفى كون الله متكلما بحرف وصوت.

وظن أن هذه قاعدة عقلية صحيحة وما نتج عنها صحيح، ولكننا نجد أن العضد وهو أحد منظري المذهب وعنده عقل يفكر فيه قد أثبت الحروف والأصوات!، وأجاب عن إشكال السنوسي-قبل وجود

السنوسي- بأن قال: حروف وأصوات قديمة!! فلماذا كان قول السنوسي أولى من قول العضد؟ بل السنوسي يعترف بهذا الكلام أن الحروف والأصوات إذا انعدمت صار البكم! فكان عليه أن يقول بقول العضد وهو إثبات حروف وأصوات قديمة،

ثم نقول للسنوسي الذي قال: البكم رذيلة، من الذي أثبت البكم إلا الأشاعرة الذين قالوا بالكلام النفسي؟ فهو البكم بعينه.

فما المانع –يا سنوسي – أن نقول: حروف وأصوات لا تشبه حروفنا وأصواتنا؟؟ وهذا لازم قوي ذكره الآمدي في أبكار الأفكار.

وقد ذكرتني أجوبة الأشاعرة على الإشكالات بقول الكوثري في (إحقاق الحق) بما معناه (وقد دافع السبكي عن الجويني بأمور لم يقتنع السبكي نفسه بها فضلا عن أن يقنع غيره)!!!

وهنا مسألة: وهي أنه لا يوجد في العقل ما يمنع اتصاف الله بالحرف والصوت وذلك بإلزامين للأشاعرة:

1- لقد أثبت الحرف والصوت بعض كبار منظري المذهب كالعضد والشهرستاني.
2- ذكر الآمدي هذا الإشكال-وهو أن العقل لا يمنع من إثباتهما- ولم يرد عليه.

وهذه هي المقدمة الأولى .

أما المقدمة الثانية فقد ذكرها ابن زكري في بغية الطالب حيث قال: (الباري حي وكل حي يصح قيام الكلام النفسي به...وكل ما صح في حقه وجب له))
والمقصود بقولهم: يصح في حقه أي : أن العقل لا يمنعه.
ففتكون نتيجة المقدمتين: وجوب إثبات الحرف والصوت له سبحانه!!

وليعلم القارئ الكريم أن هذا الذي ذكرته من مقدمتين ونتيجة مجرد سفسطة وهو دليل لا يسمن ولا يغني من جوع ولكنه إلزام للأشاعرة، فهذه السفسطة يعتبرونها دليلا قاطعا وضوءا ساطعا! بل هذا هو البرهان الذي لا يقبل الشك ومن أحاط به فقط أحاط بالعلم ومن جهله –وإن أحاط بكتاب الله وبالسنة النبوية- فهو الجاهل المركب!! أما هذه السفسطة فهي دلائل عقلية قطعية التي لا يشك فيها إلا المعاند المريد!!

فتبين أن الحرف والصوت يثبتان بالدلائل اليونانية أيضا، فلا أدري لم هذا التكبر والعناد من الأشعرية؟؟

وبعد هذه الجولة القصيرة تبين معنى قولهم كلام الله معنى قائم بالنفس، وتيقنت بأنه لا حقيقة له عند التحقيق، وتبين لك أنهم مقرون أن القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، بل صرح الشهرستاني في نهاية الإقدام بأن الأشعرية لا يعتقدون أن القرآن الذي بين أيدينا معجزة، وقد اعترف بهذا الآمدي في أبكاره والله المستعان.

ولست بصدد نقض كلامهم هذا، ولكني قصدت بيان قولهم وتناقضهم فحسب، ولكن للإنصاف لا بد أن أذكر أن الأشاعرة مختلفون في كون القرآن الذي بين أيدينا معجزة أم لا؟؟ فذهب السنوسي وغيره إلى أنه معجزة ولكن أشكلت عليهم أمور كثيرة حاولوا ردها بالمضحكات المبكيات.

هذا ما رمت كتبه وقصدت رسمه وأختم ببعض التنبيهات:

1- لقد اعتمدت في نقل مذهب الأشاعرة على بعض الكتب، ككتب الفخر الرازي والسنوسي والآمدي والشهرستاني، وتركت كلام كثير من الأشاعرة لأمرين.
أولا: أن من ذكرته هو العمدة وغيره تابع له.
ثانيا: أن غير هؤلاء كالدسوقي مثلا إنما ينقل عبارات هؤلاء من غير زيادة أو تحرير في الغالب.

2- لم ألتزم ذكر نص المنقول عنه، ولكني أذكر المسألة باختصار ثم أقول: وهذا تقرير الرازي في الأربعين، من غير نقل لكلام الرازي، إذ هو تكرار وتطويل بلا فائدة، ومن أراد المراجعة فليرجع إلى الكتاب المذكور.

3- لم ألتزم العزو إلى الصفحات وذلك لأمرين:
الأول: اختلاف النسخ، وكل معلومة يختلف موضعها بحسب الطبعة.

الثاني: سهولة الوصول إلى النص عبر البرامج الحديثة كالمكتبة الشاملة، فبمجرد أن تضع كلمة للموضوع تجد الصفحة والكلام بفصه ونصه.

4- لم أقصد في هذه الرسالة الرد على شخص معين ولكنه مجرد تحرير للمسألة لا غير.

5- إن كتب المتكلمين أتباع اليونان عسرة المدرك، فغالب كتبهم قائمة على اصطلاحات منطقية يونانية تتضمن معاني فاسدة، لذلك قد يرجع الشخص لكتبهم لبحث مسألة الكلام مثلا فيقرأ المبحث مرارا وتكرارا فلا يخرج بفائدة، ومن أراد التحقق من هذا الكلام فليقرأ على سبيل المثال (حاشية الأمير) أو إن كان لا يملك كتب الأشاعرة فليقرأ ما نقله ابن تيمية عن الرازي في الجزء الثاني من التسعينية، فسيجد نفسه وكأنه يقرأ لغة غير عربية، وقد حاولت قدر المستطاع تبسيط عباراتهم وترجمتها إلى لغة القرآن وتنقيحها من شوائب اليونان.

6- هذا جهد المقل، ولا يسلم عمل من نقص، وهذا طبيعة العمل البشري، فأرجو ممن وقف على خطأ فليصوبه، ولا يتخذ الهفوات والزلات سبيلا للطعن، والله حسبي وعليه أتوكل.

وقد قيل:

فإن تجد عيبا فسد الخللا*** فجل من لا عيب فيه وعلا

وإن لم يتسفد القارئ من هذا البحث –وهو كذلك لقلة التحرير وفساد التعبير- فليدعُ لكاتبه حيث كفاه النسخ،

وقد قيل:

يا قارئ الخط استغفر لمن كتبا*** فقد كفتك يداه النسخ والتعبا.

وتم تنميق هذا المحبر بيراع أبي ريان المدني-عامله الله بلطفه الخفي-

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.